الفصـــــل الأول

التربيـــة وصناعــة الوعـــــــي

مقدمة

الوعـي.. إطار فكـرى

- مفهوم الوعي
- مستويات الوعي
- مراحل تكوين وتطور الوعي
- شروط الوعي
- معوقات الوعي

مقدمة

يواجه العالم اليوم ومع بداية الألفية الثالثة العديد من المتغيرات والمستجدات مثل: ثورة الاتصالات والإعلام ، والسماوات المفتوحة ، وندرة المياه العذبة فى العالم، ودور الدين فى المجتمع ، والعنف والإرهاب .... وقضايا الاستنساخ والهندسة الوراثية .. وغيرها من القضايا والتناقضات الدولية والمحلية ، التى جعلت الإنسان فى حالة من اللاتوازن ، مما يستلزم الوعى بها على المستوى العربى كأول خطوة أو مرحلة للتغيير الحضارى إذا أردنا ذلك. وهذا الوعى الكامل على مستوى الواقع العربى والعالمى يتطلب دورا تربويا واعيا من أجل تجاوز الفجوة بيننا وبين الآخر والتخلص من هيمنته.

إن أعاصير المستقبل القادمة أقوى من أن يمكن التنبؤ بنتائجها ، لأن التفاعل بين مجموع أجزائها يسبب تحولات سريعة للغاية ، ولذلك فإن الطريقة المثلى هى وضعنا رؤية تجعل تخميناتنا للمستقبل موثوقة بشكل أفضل ، وأى رؤية نضعها يجب أن تقوم على فهم للقوى التى تتسبب فى إحداث التغيير فى عالمنا اليوم ، لأن ذلك سيفتح لنا نافذة لاستشراف المستقبل[1]. ولكن لكى يتم هذا الفهم جيدا لابد أولا أن نعى ذلك ، فالوعى الحقيقى شرط أساسى لفهم جيد ومن ثم تشخيص ووضع رؤى مستقبلية على قدر كبير من الصحة والتوقع السليم. فالوعى بالتحالفات الدولية كالتى تدخل فيها أطراف آسيوية وأوروبية وطبعا الولايات المتحدة الأمريكية .. يكشف عن تلك التحالفات والتحولات الدولية التى لها دلالاتها وانعكاساتها على المنطقة العربية والشرق الأوسط ، بل أن الواقع يثبت أكثر من ذلك وهو أن تلك المنطقة تدخل ضمن الحسابات والدوافع وردود الأفعال الدولية أيضا والرهانات المتتالية وتصفية الحسابات والهيمنة والاستغلال... على سبيل المثال الأفعال وردود

الأفعال تجاه القضايا العربية السورية واللبنانية والقضية السودانية... وغيرها داخل المشروع الغربى -الشرق الأوسط الكبير- هذا بالإضافة إلى القضية القديمة والحديثة القضية الفلسطينية... والحرب ضد العراق ، والصراع العربى الصهيونى ....الخ. وهذا يجعلنا ندرك مدى أهمية تحالف عربى قوى.

هذا الصراع الذى امتد إلى مجالات اجتماعية ، ونفسية ، حيث سعت إسرائيل لتشويه الطابع القومى العربى وساعدتها القوى الغربية فى ذلك ، وانعكس الأمر بصورة سلبية أحيانا على المثقف العربى الذى اعتمد فى دراساته وبحوثه على الدول الغربية حيث عمدت الدوائر الثقافية والفكرية الغربية لتضخيم العناصر السلبية ، واخفاء العناصر الإيجابية فى الشخصية العربية بل والاستفادة من بعض الدراسات التى قام بها باحثون عرب فى هذا الصدد[٢].

وهذا يدعونا إلى ضرورة الوعى الكامل بحقيقة الصراع العربى الصهيونى حتى لا يتحول تدريجيا كما تريد إسرائيل إلى صراع **فلسطيني/ إسرائيلي**... بل إن أحد دوافع الحرب على العراق هو تمهيد صريح للاعتراف بالكيان الصهيونى فى المنطقة ، مما يستلزم ضرورة الوعى بالقضايا القومية العربية فى إطار الوحدة العربية والأمن القومى العربى وما يرتبط بتلك القضايا من تأثيرات سياسية وتحولات اقتصادية وثقافية وتربوية أيضا ، وتأثيرها على المواطن العربى وتشكيل عقله وشخصيته وخصوصيته الثقافية... الأمر الذى يعظم من أهمية صناعة الوعى العربى وعيا حقيقيا. حتى يتصدى لقضاياه بجدية ، ويعى وجوده الاجتماعى الذى هو جوهر العلاقات الإنتاجية والتوزيعية ويعى علاقاته الخارجية وخاصة علاقته بالنظام الرأسمالى العالمى والتحرر منه ، "إن قضية تشكيل العقل وصناعة الوعي أصبحت من أهم القضايا التى تأخذ اهتماما خاصا فى كل دول العالم ، لها مراكزها المتخصصة

وبحاثها وبحوثها ، نتيجة الإدراك العلمى أنها قضية محورية فى صناعة السياسات والتأثير فيها وأنه بدون عقول سليمة واعية ، لن تستطيع الدول والمجتمعات تحقيق التقدم فى أى مجال ، وأن هناك شروطا لبناء العقول السليمة الواعية ، أولها ضمانات الحرية... بدون الحرية لن نبنى عقلا سليما ولن نشكل وعيا قويما ، دون ذلك هو الزيف والتزييف[٣] ، وتقع مهمة تشكيل وصناعة الوعى فى المقام الأول على عاتق التربية بوسائطها المختلفة ، مما يتطلب وعى التربية نفسها بهذا الدور وتناغمها وتكاملها لتكوين وعى حقيقى لدى الإنسان العربى كمهمة بناء.

فالوعي خطوة أو مرحلة هامة من مراحل التغيير لاسيما إذا كان هذا الوعى وعيا حقيقيا.... ونحن أحوج اليوم فى ظل تحديات القرن الحادى والعشرين أن نكون على وعى حقيقى كامل بكل هذه التحديات دوليا وإقليميا ومحليا... لأن الأمة العربية لا يمكنها بناء أى نهضة بظروفها الراهنة... لذا كان علينا أن نبدأ بالوعى الحقيقى... حتى نصل إلى التغيير الحضارى والتقدم العربى الذى نرجوه ، إذ إنه فى ظل الفجوات الرقمية بين العرب وغيرهم سيكون التقدم صعبا ولكنه ليس مستحيلا. ولهذا فإن استمرار الفرقة العربية التى يبقى عليها الغرب ، بدافع الحفاظ على مصالحه وسيطرته على منابع النفط العربية ستساهم أيضا فى عدم استقرار المنطقة[٤] ، فقدر هذه المنطقة أن تجتهد وتقاوم كل ما يحول دون تكوين بناء عربى مشترك يجمع بين خصوصية المنطقة فى التكوين والفكر والوجدان والاقتصاد والسياسة.. وذلك ما يستلزم الوعى به.

منذ عام ١٩٦٧م حتى الآن لم تتأصل فى بلداننا الحريات العامة والخاصة ولم ينجز نمو كاف فى المجالات التكنولوجية والفكرية والاقتصادية...الخ. بل أن تلك الفترة أسهمت فى بناء أجيال خالية من الفاعلية فى العمل ، ومن الحس الوطنى

التضامنى فى الممارسة السياسية ، ومن المسئولية... وأن كانت هناك محاولات فى مجال البناء الوطنى إلا أنها تميزت بالشكلية والارتجال ولم يمس بناء الإنسان الجديد سلوكا وفلسفة ، وأن هناك من التجارب الجيدة ولكن لم تجد من ينقلها من المدونات إلى مجال التطبيق والممارسة الفعلية والفاعلة لسبب بسيط وواضح وهو أن المثقف المتنور فى واد والشرائح الحاكمة والقائمة على التنفيذ فى واد أخر تفصل بينهما هوة تزداد يوما بعد يوم[٥].

هذا بالإضافة إلى استخدامها من الآليات مثل التعليم والإعلام وغيرها كآليات هيمنة وقهر للإنسان العربى من خلال تزييف وعيه أو تشويهه وتغييب عقله.. لاستمرار سيطرتها على الجماهير ومقدراتها.... وهكذا يفتقر الإنسان العربى إلى الوعى الحقيقى الذى يجعله يدرك أبعاد المسئولية ويستشرف الطريق نحو الارتقاء فوق حدود الواقع[٦]. فبدلا من الوعى النقدى البناء تركن الأغلبية إلى أفكار بالية. وتكريس ثقافة الخنوع وعدم المسئولية ، وذلك من أسباب هذا الشلل الذى يخدر الجميع[٧] ، فالوعى لدى الشباب الجامعى على سبيل المثال يعانى من أزمة تزييف ، حيث فقد العقل لدى هؤلاء الشباب قدرته على النقد ، واتسم الوعى بأنه جزئى ونقلى ومرتبط بالمصلحة القريبة المحققة ، بل إنه فاقد للرؤية الكلية والقدرة على التأويل بما يتواكب مع مستجدات العصر[٨] ، وإذا كان هذا شكل ووضع الوعى لدى الشباب الجامعى فكيف الحال إذن لدى الجماهير غير المتعلمة وهى فى بلداننا كثيرة.. للآسف لقد نجحت الطبقة المهيمنة فى المجتمع المصرى على سبيل المثال بفرض ايديولوجيتها وآلياتها والتى لها من قوة التأثير ما أدى إلى تشكيل وعى كاذب لدى الشعب بقضايا الواقع المعاش فافتقر إلى تكوين رؤية صائبة لمستقبله ، والأكثر من ذلك فقد نجحت تلك الطبقة فى تثوير الشعب فى إطار هذا الواقع ولكنها ثورة إلى الداخل تفشت فى

شكل أمراض نفسية وجسمية أصابت الشعب المصرى وأخذت من أمواله وصحته وعمره الكثير.... بدلا من أن يعبر عن نفسه ويشارك فى تحقيق مصيره... هذا مما يستلزم الوعى الحقيقى الحر الذى يجعل من الحوار فى مقدمة القائمة ، حوار تشاركى حقيقى ليس للتنفيس ومراعاة حد اللياقة المجتمعية بين طبقة مهيمنة وأخريات مغلوبة على أمرها. الأمر الذى يضع التربية بكل آلياتها ومن موقع التنفيذ لتصنع وعيا حقيقيا يمتلك القدرة على التفعيل ، أى يستند إلى نسق قيمى إيجابى. فإذا كان الوعى أول مراحل التغيير ، فإن صناعة الوعى أول مهمة لصناعة البشر مما يرتبط ارتباطا وثيقا بالتنمية.

فكيف تسهم التربية فى صناعة وعى عربى حقيقى قادر على مواجهة تحديات العصر ويسهم فى بناء الإنسان الذى يشارك بإيجابية فى عملية التنمية والتطوير فى الوطن العربي؟.

وهذا يدعو لمناقشة الأسئلة الآتية:

١. ما الوعي ، مراحل تكوينه ، مستوياته ، شروطه ومعوقاته؟

٢. ما التحديات التي تواجه واقع ومستقبل الأمة العربية على جميع الأصعدة القومية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية....الخ؟

٣. ما المتطلبات القيمية لصناعة وعى الإنسان العربى وتحريره من خلال التربية ، فى إطار بناء الإنسان فى مجتمع التنمية .....؟

وذلك في إطار تقديم محاولة لصناعة وتحرير وعى الإنسان العربى ، والوعى بآليات تزييف هذا الوعى.. والإسهام فى خلق وعى عربى حقيقى فاعل من خلال التربية ووسائطها المختلفة. وهذا يتطلب الوعى بالعلاقات المعقدة التى تربط الموضوع بما يحيط به من قضايا ، **والقيام بالإجراءات الآتية:**

تناول مفهوم الوعي من منظور فلسفى اجتماعى نفسى مع توضيح لأهم مستويات الوعى ومراحل تكوينه وشروطه ومعوقاته فى الواقع العربى.

التحليل النقدى للعلاقة بين الوعى وبعض الآليات المجتمعية والكشف عن بعض المتناقضات فى الواقع العربى كآليات لتزييف الوعى العربى ، والتى من أهمها التعليم والإعلام بوسائله المختلفة ، وإبراز العلاقة الجدلية بين الوعى. وتلك الشروط التى تمثل شروطا لتكوين الوعى أو شروطا أيضا لتزييفه وتشويهه على حسب الغرض من استخدام تلك الآليات.

تحليل ونقد كل ما يتعلق بالوعى العربى تجاه القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية....الخ والتى تمثل تحديات تواجه الإنسان العربى على جميع الأصعدة القومية والسياسية والاقتصادية....الخ ومن خلال ذلك نستطيع الكشف عن جوانب القصور فى الواقع العربى مما يستلزم الوعى.

على ضوء ما سبق ترصد الدراسة دور التربية ، سواء الرسمية أو اللارسمية ، والتى يمكن من خلالها بناء أو صناعة وعى عربى نستطيع من خلاله أن نبنى مراحل أخرى فى عملية تغيير الواقع ورسم رؤى مستقبلية قائمة على حقائق سليمة ووعى حقيقى حر مفعل فى إطار قيمى إيجابى. والذى يصب فى النهاية فى تكوين وعى تنموى عربى تحتاج اليه عملية التنمية فى بلداننا العربية بشكل ضرورى سواء على المستوى البشرى أو المادى.

وتنطلق الدراسة من الآتي:

لا تنمية شاملة بدون بناء للإنسان ... إذن لا تنمية بدون وعى تنموى حقيقى يشتمل وعيا بقضايانا القومية والسياسية والثقافية...الخ.

الوعي خطوة من خطوات التغيير ، والوعى النظرى غير كاف ولكن لابد من تفعيل هذا الوعى من خلال امتلاك القيم المرتبطة به وتحولها إلى أفعال وممارسات وهذا يتطلب وعيا حرا.

أن درجة الوعي لدى الفرد يتوقف عليها اختياراته وسلوكه وأفعاله وعلاقاته مع الآخرين ، ومدى وعى أفراد مجتمع ما يدل على مدى رقيهم.

تتعدد أشكال وأنواع الوعى بتعدد القضايا والموضوعات فى الحياة. بمعنى أنه طالما وجدت قضية أو موضوع ... فإنه يستلزم الوعى بها.

الوعي ظاهرة إنسانية/ اجتماعية طبقية يستلزم تكوينه شروطا معينة كالتعليم ، المعرفة ، الحرية ، الديمقراطية ، الشفافية... وغيرها والتى تربطها بالوعى كقيمة أيضا علاقة جدلية.

- الوعى تراكمى وأيضا قد يحدث نتيجة لطفرات تنويرية. فهو تراكمى لأن الوعى بقضايا أو مجالات معينة قد ينبنى على وعى سابق. فى ضوء إمكانية العقل فى نقل الأفكار من مجال لآخر. إلا أنه قد تحدث وثبات أو طفرات فى الوعى. نظرا لتعقد إمكانات وطاقات الإنسان وتشابك وتعقد الحياة من حوله.
- من استقراء الواقع العربى بعامة نجد أنه خاضع لعمليات تزييف وتشويه للوعى مما يكون لديه وعيا كاذبا لا يدرك من خلاله حقيقة الواقع المعاش ولا يستطيع تكوين رؤى سليمة لمستقبله.

- الوعى طريق للتحرر من خلال التربية فالقائمين على عمليات التربية ، والطبقة التى تتحكم وتسير وتيسر هذا الدور أو ذاك هى المسئولة عن تكوين وعى حقيقى أم وعى كاذب من خلال التربية.
- من مهام النظام التعليمى تكوين أو تشكيل متعلم واع.

الوعى.. إطار فكرى:

مفهوم الوعى:

"أن كل مصطلح ، لاريب وليد منظومته الفكرية التى ينتمى إليها أو نسقه العلمى أو الفلسفى الذى انبثق منه فيكسبه لونه المعرفى وخصوصيته ومناعته "[٩]. ومفهوم الوعى واحد من المفاهيم التى يكتنفها الغموض بكثرة ما كتب عنه فى مجالات نفسية وفلسفية وسوسيولوجية ، وكونه مفهوما ليس بسيطا لارتباطه بالعقل والعمليات العقلية.

فالوعى عملية معقدة تتدخل فيها جميع العمليات العقلية التى يستخدمها الإنسان للحصول على المعرفة. كالتفكير ، والتذكر ، والتخيل ، والاستيعاب ، والحفظ والاسترجاع ، والاستدلال والتعميم والحكم ، كل هذه العمليات تؤدى إلى وعى الإنسان لذاته ولقدراته ، وما يحيط حوله من موجودات وعيا مباشرا. إلا أن الوعى ليس عملية سلبية فى الاستقبال فقط. لأن العقل الإنسانى الفاعل يستوعب ويضيف ويحذف وينظم ويؤول ما يتأثر به من مواضيع مدركة ، ثم يستخدمها فى المكان والزمان بأسلوب إبداعى[١٠] وهذا يعطى مؤشرا لارتباط الوعى ، كعملية

أساسية ، بالإبداع كقدرة إنسانية فاعلة ، بها يستطيع الإنسان تغيير واقعه. فالوعى بناء لتحول خلاق فى التكوين الحسى والتصور العقلى والمفاهيم ، والأفكار بشكل فعلى متوقع من خلال الأفراد والمجموعات الاجتماعية ، كما يعطيهم الهدف والتوجيه أيضا ، هذا وجميع قوى العقل والعلم والفلسفة والفن والأدب تشترك فى محاولة إلقاء الضوء على هذا الحقل المعروف بالوعى[١١].

وفسيولوجيا: نجد أن هناك مكونين رئيسين يتحكمان فى السلوك الواعى أولهما: النهوض أو اليقظة arousal ، وثانيهما: محتوى الوعى. واليقظة تتمثل فى مجموعة من التغيرات السلوكية يمكن تتبعها عندما ينهض الشخص من النوم أو الانتقال إلى حالة اليقظة. ومحتوى الوعى أيضا يعرف على أنه خلاصة للإدراك والوظائف العقلية والعاطفية ويدل على المعرفة. وإدراك للعوالم الداخلية والخارجية. وبالتالى فالوعى لديه اتجاهان هما اليقظة والإدراك[١٢]. إن الوعى البشرى ، والذكاء وغيرها من القدرات الذهنية العليا هى صفات منبثقة لنظام معقد ، هو الخلايا العصبية ، والعديد من النظريات تخصص جزءا كبيرا من الاهتمام على الانسياب المتبادل للمعلومات فيما بين الدماغ والجسد. فعند أنتونيو داماسيو عالم وظائف الأعصاب على سبيل المثال ، ينشأ الوعى من التفاعل المتجدد باستمرار بين إدراك الدماغ لحالة الجسد.. مع وجود ذاكرة ووظائف إدراكية عليا أخرى١٣.

ومن منظور فلسفي: نجد أن إنجازات العلم وخصوصا الطب لعب دورا هاما فى تشكيل الرؤية الفلسفية للوعى بوصفه تكوين على درجة عالية من الدقة للنشاط العقلى. وتحديد الوعى بوصفه قدرة جوهرية لدى الإنسان لامتلاك المعرفة والمشاعر والأفعال الإرادية والاختيارية[١٤] ، وقبل نهاية عام ١٦٩٠ ، وضع الفيلسوف جون لوك أول تعريف منهجى للوعى وهو: "إدراك لما يخطر بعقل إنسان ما".. ولم

يشر إلى أى عمليات معينة تؤدى إليه[١٥]. والمذهب الفلسفى فى الوعى أخذ كلمة الوعى كمصطلح فنى أو تقنى فى عدد من الانساق الفلسفية بشكل استثنائى.. إلا أن "**Hamilton**" قدم فكرة إمكان تشبيه أو مقارنة الوعى بالإشارة الداخلية بواسطة وسائل فيه وفيه فقط ، أى محاولات أو طرق فى العقل تكون وصفا مرئيا واضحا.. والوعى ببساطة واحد فى نوعه. ومتباين فقط فى درجات شدته وقوته ، رغم أن هناك أنواعا مختلفة من الأساليب العقلية التى تمكننا من إدراكها وتميزها[١٦] وفى الفلسفة القديمة كان الوعى مرتبطا أو مرادفا للعقل والذى يعتبر فى العالم الواقعى مترادفا مع القانون الكونى.. وفى العصور الوسطى فسر الوعى على أنه مبدأ فائق إله وفى العصر الحديث نجد أن أعظم التأثيرات فى مشكلة الوعى فى الفلسفة ، بذل أو تم ممارسته بواسطة ديكارت ، والذى أعطى الأسبقية لعامل الوعى الذاتى فيرى الوعى بوصفه تأملا أو تفكيرا لما يمتلكه العالم ذاتيا أو داخليا تجاه موضوع التأمل والتفكير ، عندما يوحى إليه العالم الخارجى أو المادة. وتبعا لرؤية ديكارت الروح فقط تفكر والجسم فقط يتحرك.. تلك الرؤية للوعى أثرت على النظريات المتعاقبة للوعى والتى أتت لتتماثل مع القدرة الموضوعية لامتلاك المعرفة[١٧] ، وقد صاغ رينيه ديكارت ١٥٩٦-١٦٥٠ وجوده كشخص واع فى شعاره الشهير "أنا أفكر إذن أنا موجود" ومن قبله القديس الكاثوليكى الفيلسوف أوغسطين: عرف الإدراك الذاتى بأنه مظهر أساسى للوعى

وأعلن: أنا أفهم أننى أفهم[١٨] ، ولكن إذا قلنا أن كل وعى هو وعى بشئ ما ، فإن ذلك يحيل إلى نسق فلسفى فينومنولوجى ظاهرياتى يغاير انساق الفكر الديكارتى المنبثق من مفهوم رئيسى يتكئ على وعى الذات بنفسها كما حدد

ديكارت.. لتصبح العلاقة بين الذات والوعى متجاوزة الذات إلى حيث وعى الأشياء، كما فى عبارة "هوسرل" "أنا أفكر بما أفكر به"[١٩].

وترى كل من الفلسفة التجريبية والواقعية أن الوعى انعكاس للواقع الخارجى، أما البرجماتية فتعتقد أن هذه النظرية تهدد القيمة الفعلية للوعى الإنسانى ، وما يقوم به من عمليات معقدة. ذلك أن هذا الوصف لدور العقل ووظيفته لا يتعدى وصف عمليات المخ فقط ولم يتجاوزه إلى الوعى والشعور والإرادة ، التى هى لدى جيمس أساس التقدم العقلى والحضارى للبشرية[٢٠].

ويرى جون ديوى أن الوعى يختار موضوعه من خلال الممارسة وهنا نجد علاقة جدلية بين الفعل والوعى. ويؤكد ديوى ذلك بقوله "إن التفكير.. هو خطة لفعل من الأفعال ، كما يؤكد عدم وجود تعارض بين مواد الطبيعة وبين الوعى بقوله إن الذهن هو الوسيلة التى تصبح المشاركة بمقتضاها فعالة مثمرة عبر الإحساس ، أو هو الواسطة التى تستخرج عن طريقها المعانى والقيم لكى تستبقى وتختزن ، وتجهز لما يستجد من خدمات فى مضمار عمليات اتصال المخلوقات الحية بالبيئة المحيطة بها..[٢١].

ويرى ماركس أن الوعى فى المقام الأول نتاج للواقع.. والوعى يكون طبيعيا بتقاربه مع الوعى البسيط الملموس للبيئة مباشرة والوعى للمكان[٢٢].فالوعى معرفة ، وقيمة تظهر فى السلوك.

ومن منظور سيكولوجى: نجد أن عالم النفس الرائد "وليم جيمس" يقرر أن الوعى مجرد ناتج لنشاط الدماغ. أما عالم النفس "برنارد بيتس" يطرح نظريته "منطقة العمليات الشاملة التى تفيد أن الوعى هو العملية التى يتم بها عادة تجميع

العمليات اللاواعية معا بطريقة طبيعية فوق مسرح عقلى[٢٣] فالقاعدة العامة هى أن الوعى هو الذى يحكم الطوية الإنسانية أو الشعور. وهو عقلانى يحرك المشاعر والرغبات بتخطيط دقيق ، من أجل مزيد من الإدراك للواقع ، والتلاؤم معه. أو حتى جعل الواقع يسير حسب رغائبه بل وتطويعه ، والإنسان الناجح المتفوق بهذا المعنى هو الذى جعل من رغباته رغبة للآخرين يخدمونها ، فحقق تفوقا بمشاعره وفكره على الواقع[٢٤]. وبعد هذه الرؤى المختلفة التى تتفق فى جزئيات وتختلف فى جزئيات أخرى حول الوعى الإنسانى وعلاقته بالذات والموضوع.

نجد أن باولو فريرى يشير إلى رؤية نقدية ، فالوعى هو الإدراك الناقد والرؤية الحقيقية للواقع ، وفهم العالم الذى يعيش فيه الإنسان والعمل على تغييره ، فالوعى أداة نقدية يكشف بها المقهورون حقيقة أنفسهم وحقيقة قاهريهم ، ومتى أدرك هؤلاء حقيقة الاضطهاد وعرفوا أنه مجرد عقبة يمكن تجاوزها فإن هذا يكون بداية تحركهم نحو التحرر فالإدراك وحده لا يكفى لتحقيق الحرية ، وإنما لابد أن يصبح قوة فعلية تحرك عملية النضال[٢٥].

فالوعى يحوى مكونات الماضى وضغوط الحاضر والتطلع للمستقبل. وكلما اقتربت الهموم من المصالح المباشرة والحياتية ، كان إدراكها أكثر جدية[٢٦] هذا ويمكننا فهم الوعى بطرق مختلفة: فى الإحساس القوى المعبر عن عقل واع واستقلالى ، فى حياة ذات هيئة واعية ، وفى الإحساس المعتدل المعبر عنه من خلال الإنسان... وفى بعض الحواس الوسيطة ذلك أن الجنس البشرى يمتلك دائما بنية تحتية للوعى **infraconsciousness** والذى لا يعنى إدراكا كاملا بل يعنى نوعا هاما من الاحساس أو الإدراك. كما يمتلك الإنسان خلفية عقلية ضرورية من أجل الوعى الكامل والذى يدرك ويميز بها خلال البشر...[٢٧].

مما سبق من خلال استعراض بعض المفهومات حول الوعى نستنتج أن:

- وعى الإنسان ليس وعيا فى المطلق ولكنه وعى مرتبط بالمجتمع وحركته وتقدمه أو تأخره ويؤثر فيه كما أنه يرتبط بثقافة هذا المجتمع ، سواء أكانت ثقافة ثرية وغنية بتفاعلاتها أم فقيرة وضحلة..
- يتحكم فى وعى الإنسان عوامل داخلية تتعلق بالإنسان نفسه من حواس وعقل وإدراك وكذلك الوسط الاجتماعى والثقافة والوسائل المعنية والتى تشكل هذا الوعى مما يعنى أن الوعى مرآة أو انعكاس لتفاعل الإنسان كفرد مع الواقع الاجتماعى حوله.. كلاهما يؤثر فى الأخر فى إطار علاقة جدلية بين الوعى والفعل.
- أن الوعى قيمة كبرى تنتظم فى مجموعة من القيم التى تمثل أساسا قويا فى أى مشروع نهضوى ومن ثم فالوعى سبيل للتحرر.
- أن الوعى مرتبط باللغة والفكر والمعرفة والحقيقة.. فهى مدخلات أساسية للوعى الحقيقى أو الزائف.. ومخرجات أيضا للوعى.
- الوعى فى ذاته لا يمثل الكثير ولا يحرك شيئا ولكن لابد من تفعيله بتحويله إلى قوة فعلية ووقود للتغيير بارتباطه بالقيم والسلوك.
- أن كل معرفة حقيقية وعى وكل وعى مبنى على وعى يؤدى إلى مزيد من الوعى. وبفضل الوعى يستطيع الإنسان أن يتغير ويغير الواقع ويعيد بناءه مما يتطلب وعيا حرا حقيقيا.

هذا وقد سبق أن قدمت الدراسة الحالية مفهوما عن الوعى.

مستويات الوعى:

إن الوعى كتكوين معقد يتكون من أشكال أو مستويات متعددة وعناصر متفاعلة باستمرار ، والقاعدة أو القانون فى مستويات الوعى على مستوى الشخص أو بشكل عام يتم تشخيصها فى الشخص السليم بواسطة درجة تفاعله الإيجابى مع البيئة ، والزمان ، منطقية الأحداث ، والناس المحيطون به ، وأيضا علاقته بنفسه وفكره ، ومشاعره ، وتوجهه الإرادى. وعندما يكون الوعى على مستوى متدنى يلاحظ نشاطات لا تحث على التركيز للأهداف أو الأشياء الهامة ، فى الفكر والأفعال والتى تعرف بشكل كاف بالأهداف العقلية غير المتوقعة.. حتى تصل إلى الاضطرابات العقلية المختلفة مما يفقد الانتظام فى الفكر[٢٨] ، ووجود الوعى فى عدة مستويات جعله هدفا للبحث من خلال عديد من العلوم والفنون. ففى الفلسفة نجد السؤال الرئيسى يدور حول العلاقة بين الوعى والكينونة أو الوجود ، وإذا نظر للوعى على أنه خاصية مميزة عالية التنظيم المادى المخ يكون الوعى إدراكا وفهما للوجود[٢٩]. وقد قسم الوعى إلى عدة مستويات فمن منظور سوسيولوجى نجد الوعى مستويات وعى فردى ووعى جماعى/ جماهيرى. وأصحاب هذه الوجهة يرون أن: "الفردية لا تظهر شخصية الإنسان فلا يعى تمام الوعى أنه ينتسب إلى مجتمع الآخرين ، وأنه يخلق نفسه من جديد فى كل لحظة من وجوده بفضل ما يتلقاه من الكيانات الفردية الأخرى التى تقدم على المهمة نفسها...، فالوعى الاجتماعى لدى الأفراد يتكون انعكاسا للعلاقات الاجتماعية من خلال تفاعلهم مع الثقافات والسياسات التى تحدث فى المجتمع ، فيصبح الوعى الاجتماعى بالتالى ، إدراك ومعرفة وفهم الفرد لنفسه ، كعضو فى جماعة وفهمه لما يحدث فى المجتمع من تفاعلات وتوظيف هذا الفهم من قبل

الأفراد ، ليصبحوا كائنات اجتماعية"[٣٠] ويكمن فرق جوهرى بينهما فى الخصائص الاجتماعية لحامل كل منهما ، فيكون الوعى الجماعى أكبر من مجرد جمع وعى الأفراد ، لأنه ينتج عن مركب جديد ، نتاجا لتفاعل وعى كل فرد مع الآخرين ، ، وتفاعل الوجود الاجتماعى مع الوعى الجماعى هذا بجانب التفاعل مع العوامل الداخلية والخارجية الأخرى.. فالوعى الفردى يعبر عن فرد محدد له ظروفه النوعية ، أما الوعى الاجتماعى يعنى وعى طبقة محددة ، أو وعى مجتمع محدد[٣١].

هناك تفاعل مستمر بين الوعى الفردى والاجتماعى ، بالضبط كما أن المجتمع ليس مجموعا للناس الذين يحتويهم ، فالوعى الاجتماعى ليس مجموعا لوعى الأفراد **Sum-total** كما أن جودة العام لا يعنى ولا يعبر عن جودة كل فرد ، لذلك الوعى الاجتماعى ليس وعيا لكل عضو فى المجتمع.. فالوعى الاجتماعى يكون على نحو كيفى نظاما فكريا عاما مع وجود استقلال نسبى[٣٢]. ويؤكد دور كيم أن الوعى الفردى جزئية متضمنة فى الوعى الجمعى ، ومن ثم فالأخير هو المصدر الحقيقى لعقلانية السلوك ، ويتضح ذلك حينما يؤكد فى أكثر من موضع أن عقلانية الفعل تتجاوز الحساب أو الإدراك الفردى. وإنما تتحدد هذه العقلانية أساسا بالنظر إلى الضمير الجمعى من حيث كونه يحدد القواعد الحاكمة للسلوك من الخارج بالإضافة إلى تشكل غايات السلوك تلك التى تشكل جوهر الشخصية الفردية[٣٣].

وإذا كنا نعترف بالمعارف الجماعية القائمة على أحكام جماعية فيجب الاعتراف بالتجارب والحدوس الفردية والوعى المنفتح حيث أن كل وعى ملتزم بجدلية "الأنا ، الآخر والنحن". فالتفكير لا معنى له إلا عند مناقشة "المع والضد" ومجابهة الحجج أى الحوار ، فعلاقة تحديد النسل والفقر والجهل والمرض وعلاقتهما بالسياسات الاجتماعية فى المجتمع.. ما يدل على أن الوعى الفردى يستدخل الوعى

الجماعى العلمى والفلسفى لتحقيق أهداف سياسية....[٣٤]، وفى العصر الحديث يفسر أصل وتركيب الوعى من خلال الألمان فى الفلسفة المثالية.. والتى اظهرت مستويات مختلفة فى تنظيم الوعى ، .. الفاعلية صحة الوقائع التاريخية ، الجدل بين ما هو حسى وما هو منطقى فى تفكير الفرد والمجتمع.. وفى فلسفة كانط **Kant** نجده فى الوعى الذاتي**Transcendental apperception**[٣٥]. وينتقل بنا هيجل **Hegel** إلى مستوى آخر من الوعى وهو مستوى الذاتى/ الموضوعى ، حيث عبر عن الطبيعة الاجتماع تاريخية للوعى. وأكد مبدأ صحة الوقائع التاريخية فى فهمه للوعى ، وواصل على افتراض أن الوعى الفردى الروح الذاتى يكون بالضرورة مرتبطا مع الدافع أى الشئ المدرك بالحواس ، والذى يحدد بواسطة التكوينات التاريخية فى حياة المجتمع تلك التى تفسر بشكل مثالى بوصفها تجسيدا للروح الموضوعى[٣٦] ، وعندما يرتفع مستوى الإدراك الذاتى فى بعض المجموعات الاجتماعية ، شعب أو أمة ، لفهم موقعها فى الحياة ، وفى التاريخ وتأثيراتها وأفكارها ، وأهدافها ، وإمكاناتها الواقعية ، والمسئولية تجاه المجتمع والإنسانية تكون قادرة على تحقيق المعجزات والبطولات... وعلى مستوى الفرد فإنه لا يستطيع أن يحدد اتجاهاته وعلاقاته فى وسط هذا الطوفان من الأحداث دون بعض المعرفة عن نفسه ، ومعرفة ما الذى يستطيع عمله وبأى طريقة يمكنه الوصول إلى مطامحه ، وفى مراحل عليا للوعى الذاتى يكون الفرد على درجة عالية من الإدراك والقدرة على تحديد علاقته مع العالم... ويستطيع أن ينتظم فى كل شئ ينجزه ، وفى علاقته بكل من الماضى والمستقبل[٣٧] ، وبالطبع ناتج العلاقة بينهما يكون حاضرا واعيا فى ذات الفرد.

وأما على المستوى المعرفى فيمكن التمييز بين الوعى اليومى المباشر والوعى النظرى الأكثر تجريدا. فالأول ، الذى اهتم به الوظيفيون أكثر من غيره وهو يمثل

تعبيرا عن خبرة الحياة اليومية المباشرة وحاجات البشر اليومية ، أى أنه أكثر ارتباطا بالوجود العيانى المباشر ، ولذلك فهو تفصيلى وتجزيئى ، فى حين أن الوعى النظرى ، يحاول من منظور تاريخى ومعاصر ، فهم جوهر الواقع الاجتماعى ، وظاهراته ، والقوانين الأساسية التى تحكم سيرورته...[٣٨]

ما سبق نستطيع توضيح الآتى:

- أن كل مستويات الوعى السابقة تتضمن بعدا ذاتيا.
- أن هناك علاقة جدلية بين الوعى الفردى والجماعى فلا يمكن فصل أيهما عن الآخر ، وتظهر فى تغيير الواقع.
- الثقافة والسياسات الاجتماعية بشكل عام فى كل أمة تلعب دورا هاما فى تكوين الوعى الفردى والجماعى معا.
- واقع المجتمعات العربية فى حاجة ملحة إلى كلا النوعين من الوعى الفردى والاجتماعى من أجل وعى تنموى تنمو فيه الوحدة فى اطار الاختلاف وتتكون من خلاله التحالفات العربية ، ومن ثم فالوعى الاجتماعى مهم وأساسى من أجل تنمية عربية شاملة ناجحة ، فهو يضم فى طياته كل مستويات الوعى. ذلك المستوى من الوعى الذى يمكن أن نطلق عليه مستوى وعى **ماضى/ مستقبل** وينبثق من خلالهما بشكل جدلى حاضر واع ، وتأسيسا على ذلك فإن الوعى بالقضايا القومية والوعى بالقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية العربية يعنى أول ما يعنى وعيا مجتمعيا.
- كذلك أنه على كل مستويات الوعى السابقة نصل إلى حالتين لهذا الوعى وهما إما أن يكون ثمة وعى حقيقى نتيجة لمدخلات حقيقية سليمة ... وإما أن يكون وعيا زائفا.. طبقا للوسائل والأدوات القائمة على تشكيل هذا الوعى.

مراحل تكوين وتطور الوعى:

يمكن ملاحظة الوعى من خلال درجات متباينة فى وضوحه من الإدراك الحسى العادى البسيط فى الأشياء إلى حالات التألق أو الإلماعية فى إنجاز العقل بشكل مدهش فى نفاذ البصيرة داخل ماهية الأشياء. وإلى ذروة الوعى حيث نمتلك مستوى مرتفع من الادراك فى النشاط الروحى ينجز فى عمليات استثنائية... وإنتاج إبداعى[٣٩].

والضرورة التاريخية مع بروز وتطور الوعى مكنت الإنسان من الحصول على صورة دقيقة عن العالم حوله ، وتوقع المستقبل ، فالوعى الشخصى ليس غير إنعكاس تأملى للواقع الموضوعى ، الذى أنشأه وعندما يكون الواقع غير مرض للشخص ، يعمل على تغييره بواسطة وسائل وأشكال مختلفة من النشاط الاجتماعى...[٤٠] وعندما نتحدث عن تطور الوعى عضويا ، يجب أن نتوقع أن تقوم فكرة زيادة التعقيد بدور مهم. وتخبرنا هذه الفكرة أنه من الممكن جدا أن يكون البشر الذين لديهم أكبر قشرة دماغية وأكثرا تعقيدا فى المملكة الحيوانية. مختلفين نوعيا عن بقية الحيوانات على مستوى الوظائف الذهنية ، حتى لو كانوا متطابقين تماما عند المستوى الكيميائى[٤١]. مما سبق نجد أن الوعى يمر بمرحلتين رئيسيتين مرحلة حسية متعلقة بالإدراك الحسى ، وأخرى أكثر تطورا متعلقة بالجانب العقلى أى مرحلة فكرية. والتى تمثل فى ذروتها إنتاجا إبداعيا يعيش رغم موت مبدعيه الذين حافظوا على موقعهم الدائم الفريد مدى الحياة... ذلك الوعى الإبداعى الذى جعل من شخصية المبدع شخصية تاريخية كالذى زرع شجرة فى اتجاه جديد والذى يمتلك أكليلا يصل إلى المستقبل ويمتلك ما يشبع أجيالا كثيرة وكل الإنسانية بشكل متساو[٤٢].

مما سبق وباستقراء الواقع وتتبع مسار ايـديولوجيات متعـددة نجـد أن الـوعى وكذا تزييف الوعى يتم تشكيلهما بنفس الخطوات مع اختلاف المدخلات من حقـائق ومعلومات ، أفكار ....الخ ، .. تلك المراحل التى يمكن توصيفها كالتالى:

١- لابد أن نصنع الفكرة المراد الوعى بها أو استغلالها فى تزييف وعى ما.

٢- انتشار هذه الفكرة داخل الفئة أو الطبقة أو حتى المجتمع كله.. أى نقلها.

٣- تثبيت هذه الفكرة وتحويلها إلى قيمة أو معتقد راسخ وتفعيلها أى تحويلـها إلى سلوك ظاهر ومنتشر بين الأفراد أو الطبقات أو المجتمع الهدف.. ويرى البحث الحالى أن تلك الخطوات هى التى تستخدمها الايديولوجيا المهيمنة فى تزييـف وعى الطبقات الأخرى... وحتى على المستوى الفردى.

وحتى يتم تكوين وعى بشكل صحيح لابد من تجنب الخطأين الآتيين:

الخطأ الأول: ويتمثل فى الذاتية ، بمعنى أن يزعم الأنا الـواعى بأنـه مبـدع العـالم ، بشكل مبالغ فيه متجاهلا دور الموضوعات الخارجية فى ذلك.

الخطأ الثانى: فهو الاعتماد على الموضوعية فقط ، وتضخيمها الذى يتضمن المبالغة فـى اسـتعمال قـوة الموضـوعية فـى تكـوين الـوعى[٤٣]. إلا أنـه يبقـى مـن الضرورى التأكيد على أن الوعى كقيمة كبرى يستلزم تفعليهـا أى تحويلـها إلى سلوك فعلى .. على جميع المستويات وهذا يتطلب تحقيـق مجموعـة مـن الشروط وتجاوز عديد من المعوقات.

شروط الوعي:

إن الخطوة الأولى على طريق النهضة ، تبدأ بالفكرة والمعنى والوعي. ولا يعنى هذا أن الفكر ينفصل عن الحركة ، أو أن الفكرة تأتى قبل الحركة. والحقيقة أن أي فعل حضاري ، يحقق التغيير المستقبلي المنشود ، هو في مجمله فكر وفعل. فهو

فكرة تحدد تصورات عن الحاضر والماضي ، كما تحدد تصورا للمستقبل ؛ ثم هو فعل وحركة ، تحقق هذه التصورات على أرض الواقع[٤٤]. ولكي تتحقق الأفكار على أرض الواقع بصدق لابد أن نعيها ولكي نعيها لابد من توافر الشروط والمقومات الملزمة للوعي، فيتم ترسيخ الفكرة كقيمة يتم تفعليها على شكل أفعال..

ومن ثم يقدم البحث الحالي بعض الشروط التي يرى أنها هامة وضرورية لتكوين وعى حقيقي تلك التي إذا أسئ توظيفها ستكون هي نفسها وبتفكير جدلي آليات وشروط معوقة للوعي أو تزييفه أو تشويهه. هي منظومة تحررية قيمية .. تمثل مزيجا لا ينفصل بل يرتبط كل منهم بالآخر ، وإذا لم تتحقق تلك المنظومة أو تم إهدارها وتحقيقها على مستوى شكلي مزيف يعنى ذلك أنها أصبحت آليات لإعاقة تكوين وعى حقيقي.....

ويمكننا إيجاز بعض شروط الوعي كالتالي:

١ -المعرفة موضوع الوعي:

إن القوة العقلية بما تحويه من قوة معرفية هي التي تمثل العنصر الحاسم في صناعة التاريخ وإدارة حركة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل ، فلم يعد الجيش هو مصدر القوة ، ولم يعد المال هو سيدها ، ولكن المعرفة هي القوة الحقيقية... المعرفة هي غذاء العقل وصانعة الوعي ومحركة الضمير وهى التي دفعتنا إلى استكشاف آفاق عديدة ، ثم هي التى أجبرتنا على التركيز على قيمة العقل وأهمية الوعى فالعقل حين يتحرر يبدع ، والوعى حين يستنير ، ينير[٤٥]. لكن شرط أن تكون المعرفة صانعة للوعى هى نفسها واعية. "إذا كنا نسعى إلى اكتساب الفرد الوعى الضرورى لبناء عالم التقدم العلمى ، فالمعرفة لا تحقق الوعى ، ولكن المعرفة المسلحة بالوعى هى التى تخلق

الوعى"[٤٦] ، يعنى ذلك أنه من المعرفة ما يخلق وعيا زائفا أو مشوها كالمعرفة بالخرافات أو المعرفة المشوهة وهكذا.

٢ -التعليم:

يشكل التعليم ، والتربية فى عالم اليوم ، أحد الميادين الرئيسة التى يدور حولها صراع القوى الوطنية والشعبية فى بلدان العالم.. وذلك لما للتعليم والتربية من أهمية بالغة فى تشكيل وعى المواطنين وتكوين شخصيتهم وإدراكهم للعالم ولمعطياته. وعلى الجانب الآخر للاستقلالية النسبية التى يتمتع بها التعليم كأحد الأبنية الفوقية فى النظام الاجتماعى[٤٧].

ومن ثم فإن نوعية التعليم المتاح للمتعلمين سوف يكون الفيصل فى تكوين وتشكيل وعى المتعلم...فالتعليم البنكى يعتبر المتعلم كائن متأقلم وسهل القيادة ، وأنه كلما تأكدت حقيقة أن الطلاب مجرد مخازن للمعلومات قل وعيهم بالعلم المنوط بهم تغييره ، مما يقلل القدرة الإبداعية لدى الطلاب أو إلغائها تماما.. وكأن التعليم مجرد منحة يتفضل بها أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مالكين للمعرفة...[٤٨].

أما التعليم الإبداعى فهو ذلك النوع من التعليم الذى يشجع الاختلاف البناء ويعرف المتعلم بقدراته وامكاناته وقيمة هذه القدرات وتقبل أوجه القصور بتسامح مع تنمية المهارات الإبداعية لدى المتعلم ومساعدته على استغلال الفرص الملائمة... وتدريب المتعلم على مواجهة الصعاب والفشل بنجاح[٤٩] ، فالمتعلم الذى يتم تشكيل عقله فى ظل ثقافة إبداعية سيزداد وعيه بالواقع وبالعلم وتتكون لديه القدرات والرؤى المستقبلية التى يستطيع من خلالها تجاوز قصور الواقع بوعى حقيقى والذى يجعل من التعليم والمتعلمين مشاركين حقيقيين فى صنع القرارات. والعامل المؤثر فى كل هذه الأمور هو المعلم: "فالمسئولية المباشرة للمعلم تفوق باقى عناصر العملية

التعليمية رغم أهميتها وضرورتها فى تشكل الوعى وتنمية الإبداع. والمعلم سوف يزال العامل المؤثر فى التلاميذ من خلال القيم التى يتم غرسها فيهم وتشجيعهم على ممارستها عمليا"[٥٠].

هذا وإذا استقرأنا مسيرة التعليم عبر التاريخ نجد أنها مرت بأربع مراحل وهى: لا ثورة.. بالتعليم ثم التعليم أداة للتغيير الثورى ثم الثورة على التعليم نفسه وثورة على التعليم فى العالم المتقدم طمعا في أن تتسع قدرات التعليم لتمكن المجتمع من توفير الحاجات الثانوية الجديدة للمواطن.. وأخيرا وفى مرحلة أكثر تقدما ، ثورة فى التعليم.. مما يعنى الاتجاه لفحص التعليم من الداخل.. حتى استحدثت بالفعل العديد من الصيغ التعليمية الجديدة كالتعليم من بعد ، وغيرها[٥١] أن وجود هذه المراحل السابقة لتطور مسيرة التعليم عبر التاريخ يعبر عن تطور الوعى وتصاعده فى نفس الاتجاه فى قضية التعليم وصولا إلى الثورة فى التعليم نفسه.

وحتى يكون كل من التربية والتعليم صانعين للوعى فى ظل ثورة المعلوماتية وتحديات القرن الحادى والعشرين لابد أن تعى التربية العربية الغايات التربوية الآتية وتحققها على أرض الواقع ، وهى أن التعليم لابد أن يكون تعلم لنعرف ، تعلم لنعلم وتعلم لنكون وتعلم لنشارك الآخرين. ومن ثم تعلم لنعى ونفعل تلك الغايات الأربع الأولى التى جاءت فى تقرير اليونسكو عام ١٩٩٩[٥٢]: "تعلم لتعرف ، تعلم لتعمل ، تعلم لتكون ، تعلم لتشارك الآخرين".

٣- الحرية:

الحرية شرط لاكتساب وعى حقيقى ، فحرية الفكر وحرية الرأى وحرية التعبير...الخ ضرورية من أجل وعى حقيقى قائم على معرفة وحقائق غير زائفة. يرى فرانك بارون أنه: من الممكن الحديث عن الحرية الفعلية والحرية الممكنة.. فالحرية

الفعلية هى الحرية فى لحظة معينة وفى موقف معين ، على حين أن الحرية الممكنة عبارة عن قيمة تعبر عن مخزون الطاقة لدى الإنسان.. كما أن الناس فيما بينهم يتمتعون بأقدار متفاوتة من الحرية. والفرد نفسه يمكن أن تحقق لديه الحرية فى موقف معين بدرجة أكبر مما تتحقق له فى موقف آخر... وأن مستوى الحرية الذى يتمتع به المبدع ، يكشف عن نفسه فى العائد الإبداعى...[٥٣] ، فالحرية شرط للوعى الذى هو أساس الإبداع فى مرحلة متقدمة مما يدعونا إلى الوعى الإبداعى.. والأمر فى الحرية لا يقتصر على ما يستطيع الإنسان عمله أو لا يستطيع عمله بل أيضا ما يستطيع أو لا يستطيع أن يفكر فيه أو يعتقد فيه ، ولذا فالحرية تعنى فك أواصر الأسر فى كنف الوطن والانفكاك من قيود الآخر فى العمل والفكر وامتلاك إرادة الاختيار والتعبير عن الذات بشجاعة.. كل هذا مع احترام حقوق الآخرين فى الحرية.

٤- الديمقراطية الحقة:

"تعنى الديمقراطية احترام وتقدير قيمة المواطن والصلة بين الديمقراطية والسلم والعدل والإنصاف هى صلة بدهية... والديمقراطية حق أساس من حقوق الإنسان وفى أسلوب الحكم والتعامل بين الحاكم والمحكومين والديمقراطية الحقة لا تعنى مجرد إجراء انتخابات معصومة أو منزهة من الخطأ والتجاوزات وإنما هى أيضا إصلاحات إدارية ومالية وتدعيم القوانين الوطنية لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية وتعزيز النظم والهياكل القضائية.. وتحسين وتعزيز أسلوب الحكم والحوار الداخلى والمصداقية والنزاهة للمؤسسات الرئيسة فى الدولة ، والمساءلة عن الإجراءات المتخذة والشفافية فى صنع القرارات ذات الصلة بظروف وشروط عمل ومعيشة المواطنين ومستقبلهم"[٥٤] كل هذا من شأنه أن يعزز تكوين وعى اجتماعى حقيقى.

"وإذا كانت ديمقراطية التعليم من شأنها أن تعزز إنسانية العملية التربوية إلا أنه مما يهددها حقا هو أن نتصور مفهوم الديمقراطية على أنه إلتزام من قبل الدولة وحدها تجاه المواطنين بكذا وكذا من الواجبات ، وذلك أنه يعنى كذلك إلزام المواطنين أنفسهم تجاه الدولة والمجتمع بعدد من الواجبات"[٥٥]. ووعينا بمفهوم الديمقراطية شرط أساسى للتفاعل الجيد حيال المجتمع ككل وحيال أنفسنا حيث يعى الإنسان حقوقه وما عليه من واجبات.. وإذا كانت الديمقراطية تعنى حق الفرد فى المشاركة الفعالة فى بناء القرار فى العمل الوطنى فكرا وفعلا ومتابعة. فإنها تشترط أولا توفر الحرية. فكثير من الإصلاحات الإدارية والمالية والسياسية فى البلاد العربية ننتظرها حتى نأمل فى ديمقراطية حقيقية.

٥- الحوار:

"الحوار هو الأداة البشرية التى تتجاوز بالإنسان أرض الغموض إلى سماء الوضوح والمعرفة"[٥٦] ، وللحوار صور وأشكال مختلفة ، ويختلف نطاقها ، وموضوعاتها من مجتمع لآخر ، وبحسب درجات التقدم والظروف الخاصة بكل مجتمع... ولا يمكن أن يتحقق السلام الاجتماعى دون إقامة جسور وقنوات للحوار والتشاور على صعيد المجتمع الواحد وبين الشعوب والأمم على الصعيد العالمى"[٥٧] ، فالحوار أصبح ضرورة وحاجة ملحة... خاصة بيننا العرب حتى نزيل ما بيننا من خصام وننتقى من واقعنا وفكرنا العربيين ما يقيم حياة أكثر فعالية وإنتاجا ووعيا بمستجدات العصر وذلك بالتفاعل الفكرى والنقاش العلمى الذى يثمر أفكارا جديدة تغير الواقع الراهن وإذا كان الحوار ظاهرة إنسانية ، فالكلمة الصادقة بوصفها فكر وعمل وممارسة هى التى يمكن أن تغير العالم. والحوار ضرورى حيث يجتمع الفكر

والعمل ، ومن أهم شروط الحوار هو حب العالم والحياة والأمل بوصفه دافعا لتحقيق الأهداف ، والثقة فى قدرة الإنسان على الإبداع[٥٨].

فالحوار إذن هو التقاء للعقول وتلاقح للأفكار.. من أجل خروج الإنسان بأفكار وإجابات عن أسئلة تحيره وحل لمشكلات تؤرقه... مما ينمى وعيه بنفسه وبالواقع حوله.

٦- الإعلام المستنير:

وأصبحت ثورة المعلومات والإعلام مسيطرة على صناعة القرار وتوجيه السياسات وتشكيل الرأى العام وذلك فى ظل انفجار صناعة المعلومات وتجارتها.. هذا ونجد أن حق الإنسان فى الاتصال بما يشمل حرية الصحافة والإعلام ، هو جزء رئيسى من الحقوق والحريات العامة لا يتحقق إلا فى مناخ عام يحترم هذه الحقوق والحريات ويرعاها ويزرعها فى عقول البشر منذ الصغر[٥٩] ، وخطورة الثورة الإعلامية الحديثة على مجتمعاتنا النامية والعربية بصفة خاصة تكمن فى التحديات الفكرية والمعرفية وغيرها والتى تصوب فى اتجاه مجتمعاتنا خاصة بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والحروب الظالمة على الدول العربية والإسلامية... فهى وسائل قد تدخل مجتمعاتنا وتغزو عقولنا وتحرك حواسنا وتوجه إرادتنا فى غير الصالح والنافع من خلال المضمون الفكرى....[٦٠] ، مما يجعل من الوعى الإعلامى والوعى بمضمون الخطاب الإعلامى أمرا فى غاية الأهمية.. وهذا ينبه إلى شئ أخر هام وخطير وهو شفافية ومصداقية الرسالة الإعلامية نفسها ، وإطلاع جميع وسائل الإعلام المرئى والمسموع والمكتوب بمهامها فى التثقيف والتنوير وبث وغرس القيم الإيجابية الواعية.. وإلا سيكون الإعلام أداة للتضليل وتزييف وعى الجماهير خاصة عندما تكون تلك

الأداة فى يدى الطبقة ذات السلطة العليا أو المهيمنة على مقدرات بقية الشعب... فتقول ما تريد توصيله إلى الجماهير وتضحكه حينما تريد وتبكيه إذا شاءت... حتى تجعله قانعا بواقعه تماما بل هو نفسه المسئول عنه فقط مما يتطلب الشفافية والمصداقية أيضا فى السلطة السياسية وعلاقتها بالشعب.

٧ - التفكير العلمي وإعلاء قيمة العلم والعلماء:

إن أبسط ما يقدمه التفكير السليم التفرقة بين الخطأ والصواب ، وبين الضار والنافع ، وتبنى القيم الإيجابية من صدق وعدل وأمانة واحترام وتجنب القيم السلبية ، كما يزود التفكير العلمى الفرد بأدوات التعلم الذاتى وامتلاك الدافعية للبحث عن المعرفة واكتسابها ، والتحول من كون المتعلم سلبى إلى متعلم إيجابى[٦١] إذا كانت التربية تضطلع بمثل هذه المهمة فهذا يعنى أنها تقوم ببناء واحد من أهم مقومات وشروط تكوين الوعى الفردى والاجتماعى. وهذا ما يقود إلى تقدير قيمة العلم فى حياتنا وتقدير جهود العلماء لما يبذلونه من أجل وعى المجتمع وتقدمه. فيكون الوعى محصلة إذا لقيم فاعلة فى المجتمع.

٨- المواطن المنتج:

أن المواطن المنتج هو فرس الرهان للشعوب والمجتمعات فى كل الأزمنة .. فقد تغير مفهوم الإنتاج وأصبح ذا ارتباط عضوى بالعلم والثقافة والتقنية أكثر من ارتباطه بطلب لقمة العيش... ذلك المواطن الذى يستطيع استثمار ما تعلمه من حقائق وقواعد أو قيم أو أى شكل من أشكال المعرفة فى الإنتاج... فهو صمام الأمان للمجتمع.. لتحقيق تنمية شاملة هذا والإنتاج المتميز هو نتيجة طبيعية للفرد المتميز الواعى... ففى ظل التطورات الأخيرة لمفهوم الإنتاج وظهور مفهوم المتعلم

المنتج المتقن المنافس ، أصبح الاقتصاد اليوم وفى المستقبل القريب يقوم على خبرات وقدرات الإنسان الذى هو بلاشك نتاج عملية تربوية تعليمية[٦٢] تلك العملية التى يجب أن تكون على درجة كبيرة من الوعى حتى تنشئ ذلك المواطن المنتج والواعى. وإذا كان البحث الحالى قد انطلق من أنه هناك علاقة جدلية بين الوعى وشروطه ومقوماته وبين الشروط بعضها البعض. فالارتباط الوثيق بينهم كما يتضح فى الرسم التخطيطى (شكل ١) يعبر عن كون الوعى مرحلة أساسية لمجتمع الإبداع الذى ينجح فى الوصول إلى التنمية الشاملة كغاية مجتمعية كبرى.

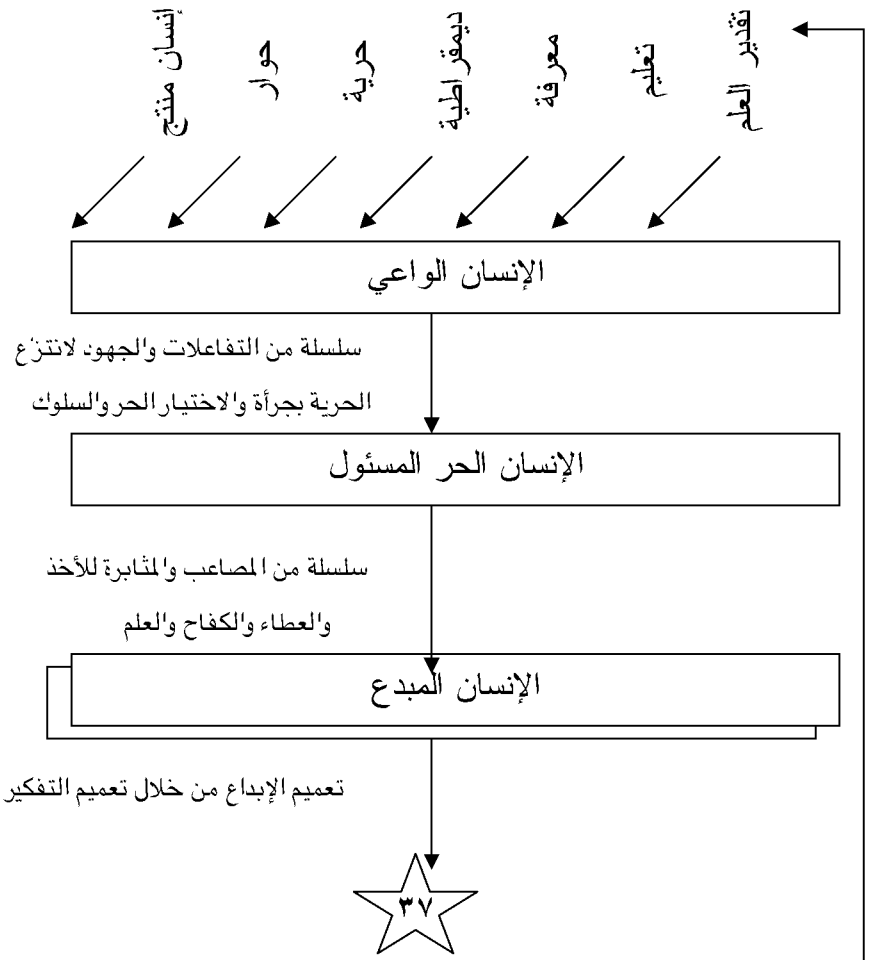

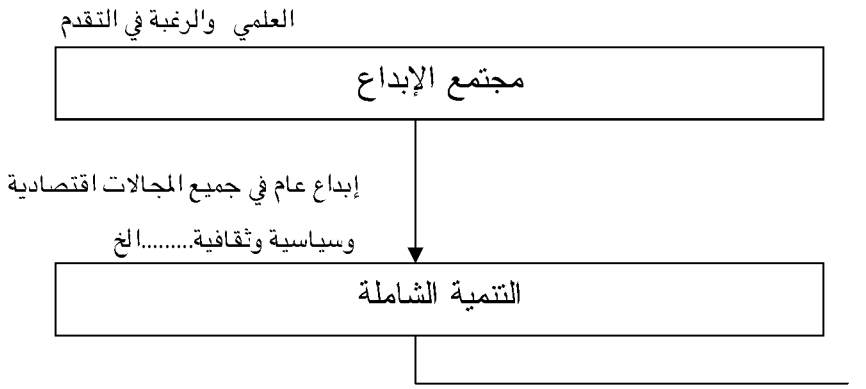

شكل (١) إطار ثقافي مبدع

معوقات الوعي:

وإذا كانت هذه بعض شروط ومقومات الوعى فإنه يمكن إيجاز بعض المعوقات التى تعرقل تكوين وعى حقيقى على كل مستوياته **ذاتى/ موضوعى أو فردى/ اجتماعى** وعى تلقائى مباشر أم علمى... كالتالى:

١-التضليل وعدم المصداقية الإعلامية/السياسية:

إن الإعلام بشكل عام قد أصبح صناعة ضخمة فى بلادنا وكيانا عملاقا وسلاحا فتاكا ، يمارس تأثيرا فاعلا خصوصا فى الداخل... فقد أدى الوضع السياسى العربى إلى تحويل الإعلام إلى أداة من أدوات الدعاية السياسية مرتبطة أشد الارتباط بالنظم الحاكمة ، حتى لو أدعت هذه النظم ممارسة الديمقراطية!... تلك التى تضبط كل يوم متلبسة بالتضليل والخداع فى الهموم الداخلية ، كما فى المشاكل الخارجية ، وتصنع من الإعلام ، بحكم هيمنتها على أهم المؤسسات الصحفية والإذاعية والتليفزيونية ، أبواقا للترويج وأدوات لتزييف الوعى وتشكيل العقل وفق ما تريد ، دون مساءلة أو محاسبة حقيقية....[٦٣].

ودراسات عديدة قد أثبتت أن الإعلام يسطح الوعى ، ويجعل الناس يسيرون فى مدار مقصود خاو من المضمون الأصيل ، ويغفل أدوارا أساسية وجوهرية للإسهام فى التنمية الثقافية... فقد أسهمت وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون فى وضع ملايين المتفرجين فى حالة من السلبية التامة أمام ما تقدمه وتصوغه من اتجاهات وقيم كما أن النخبة السياسية الحاكمة فى الوطن العربى قد اغتصبت اللغة العربية وتبنت قضايا سياسية تهدف إلى الوعى الزائف[٦٤] حيث اختلطت الحقيقة بالوهم فلا أحد يستطيع أن يعرف ويجزم بحقيقة شئ ما أو خبر ما أو الثقة فيما تعلنه الحكومة.

٢-تدهور التعليم كأداة للهيمنة والقهر:

انتهت بعض الدراسات على التعليم فى مصر ومدى ارتباطه بتزييف الوعى الاجتماعى للتلاميذ.. فهو يعكس وعيا بالأيديولوجية الرسمية والخطاب السياسى ويسعى إلى تدعيمها وتبريرها. ويسهم فى إقامة الحواجز بين التلاميذ وإدراكهم لواقعهم كما هو ، وتفسير تناقضاته ومن ثم يسهم فى محاولة تزييف وعى المتعلمين....الخ[٦٥] ، هذا وإذا كان النظام التعليمى الحالى يفرز متعلمين كل ما يمتلكونه هو آلية الحفظ والتذكر والاسترجاع الآلى للمعلومات والتى يتم نسيانها بمجرد الانتهاء من الامتحانات.. فإنه وليد لثقافة التلقين والقهر التى تشتمل على كل سمات الهزيمة الثقافية المعبرة عن انتكاس العقل تلك ثقافة الذاكرة التى تقتل الإبداع وتشل الوعى. هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من معوقات الوعى هى:

- الأمية والفقر.
- ضعف المؤسسات الثقافية.

- ازدواجية الخطاب الرسمى والخطاب الثقافى.
- غياب الخطاب الدينى المستنير.
- تحول العديد من المناصب الدينية إلى مناصب سياسية.
- التبعية للآخر ينتج ـ ويفكر ـ ويعمل ونحن نستهلك فقط.
- غياب ثقافة المقاومة لكل ردئ وشيوع ثقافة الصمت.
- الاغتراب اغتراب الإنسان عن ذاته وتكدس حاجاته واغترابه عن المجتمع والوطن...
- القصور المنهجى للأهداف التربوية.
- التناقضات المجتمعية الصارخة.

هذه المعوقات وغيرها من تحديات معاصرة يضاف إليها كل يوم تحد جديد هو تحدي الزمن والوعي بالوقت وعمر الإنسان والتى تحتاج من العالم العربى وقفة مع الذات ومع المنعطف التاريخى الذى نمر به لمجابهة تلك التحديات بشئ من الثقة فى النفس والنية الصادقة فى النهوض لنحاول بجدية التخطيط العلمى القيمى لمجابهتها.